حكايات جزائرية

عروس الجبال

دوّنها : رابح خدّروسي
رسمها : كمال بتّيوي

obeikan.com

عروس الجبال

في قَديمِ الزَّمَان كَانَت تَعيشُ في الأَوْرَاس فَتَاةٌ اسْمُهَا «أَهْمَامَه» كَأَنَّهَا مَلِكَةُ السِّحر وَالجَمَال . . . كَانَت تُنَافسُ الشَّمْسَ في إشْرَاقهَا وَالرَبيعَ في بَهْجَته وَهي تَرْفلُ في لبَاسهَا المَوْشُوم بأَوْسمَة الشَّاويَّة ، تَعيشُ في قَلب الأَوْرَاس مُتَنَقِّلَةً كَالأَميرَة الخَضْرَاء بَيْنَ وَادي الأَبْيَض وَوَادي عَبْدي . .

آه أيـنَ أنتُم أيُّهَا الأُمَرَاءُ لكَيْ تَسْتَمدُّوا مِن نَضَارَة وَجْهِهَا آيَات الفتْنَة وَالدَّلال؟!

يَومَئذ كَانَت الطَبيعَةُ تَتبَاهَى . . . تَخْتَالُ من سحرهَا ... تُغَازلُ الأَوْرَاسَ بأَسْرَارهَا البَديعَة . والأَوْرَاسُ آيَةٌ قُدُسيَّةٌ وَهَبَهَا الخَالقُ البَديعُ لـلأَرْض في عيد الطَبيعَة ، هَذه اللَّوحَةُ الفَنيَّةُ الفَاتنَةُ ، فُسَيْفسَاءُ البَهَاءَ العُذْريِّ . . . نَقْرَأُ عَلَى تَضَاريسهَا المَرسُومَة عَلَى جَبين سُكَّانهَا مَاضي أُمَّة يَجُرُّ خَلْفَهُ قُرُونًا من الحَضَارَة مُنْذُ فَجْر التَاريخ ، تَسْكُن في رَحمهَا قصَصٌ كَثيرَةٌ لمَوَاقف الرُجُولَة وَالبُطُولَة . . .

الأَوْرَاسُ عَالَمٌ فَريدٌ من نَوْعه ، يَبْدُو من بَعيد كَأَنَّهُ كُتْلَةٌ ضَخْمَةٌ ، تُشْرقُ عَلَى الدُّنْيَا ، يَمْنَحُ أُفُقُهَا أَشعَّةَ الشَّمس وَنُورَ القَمَر وَوَميضَ البَرق وَحَبَّات البَرَد . . . القَادمُونَ إلَى الأَوْرَاس

يَتَرَدَّدُونَ في اقْتحَام هَـذَا العَالَـم العَجيب لأَنَّ التَّوَغُـلَ فيه صَعْـبٌ . .

كُلُّ الطُـرُقَ تُـؤَدي إلَـى الأَوْرَاس ، أَوَّلُهَـا الطريـقُ الشَـمَاليُّ حَيْـثُ المُرتَفعَـاتُ القَسَـنْطينيَّةُ تَفْتَـرشُ السَـبْخَات . . . وَأَجْملهَـا الطَريـقُ الجَنُوبـيُّ المُزَيَّـن بحَدَائـق النَخيل وَوَاحَـات العَسَـل وَالتُمُـور المُمْتَـدَة كَسَّـجَادَة مَنْقُوشَـة بَسَطَـهَا الأَوْرَاسُ لعَـرُوس الزيبَـان بَسْـكَرَة . !! . .

إنَّ مَـن يَتَوَغَـل في جبَـال الأَوْرَاس يَجـد نَفْسَـهُ أَمَـامَ مَنْظَـر طَبيعـيٍّ في غَايَـة الجَمَـال وَالتَنَـوُّع ، وَجْـهُ الأَوْرَاس كَوَجْه التَاريـخ ، تلاَل وغابات وقِمَـمٌ وَوهَـادٌ . . مُرْتَفَعَـاتٌ وَمُنْخَفضَـاتٌ . . أَوْديَّةٌ كَثيـرَةٌ تُعَانقُ ريَّاضًا سَـاحرَةً ، وَحَدَائـقَ مـن النَّخيـل تُنَاظـرُ غَابَـات مـن أَشْـجَار مُخْتَلفَـة تَتَـزَوَّجُ الفُصُـولَ في الأَوراس فَتَلْبَسُ لَـكُلِّ وَاحـد حُلَّتَـهُ وَأَجْمَلهَـا الحُلَّةُ الثَّلْجيَّـة البَيْضَـاءُ عنْدَمَـا تَنْعَكسُ منْهَـا أَشعَّةُ الشَّـمْس ، فَتَطْبَـعُ قُبُـلاَت الصَبَـاح عَلَـى تَـاج الأَوْرَاس النَاصع البَيَـاض ، فَيَبْـدُو كَسَـبيكَة ذَهَبيَّـة لَيْسَ فيه مَوْضعٌ أَحْسَـنُ مـن مَوْضع .

في وَسَـط هَـذه البيئَـة الغَريبَـة تَبْـدُو القُـرَى في شَـكْل مَجْمُوعَـات مـن الحُصُـون وَالقـلاَع الحَجَريَّـة المَحْرُوسَـة بأَسـوَارهَا العَتيـدَة المَعْزُولَـة عَـن العَالَـم في رَأس جَبَـل أَوْ عَلـى شَـاطئ صَخْـريٍّ كَأَنَّهَـا نائمـة في سُـبَات عَميـق . . . .

هَاهـيَّ أَهْمَامَـة الجَميلَـة بَـينَ الـوُرُود كَالفَرَاشَـة المُغرَمَـة بجَمَـال الحُقُـول ، أَهْمَامَـه تَجـدُ بَيْضَـة غَريبَـة تَتَأَمَلُهَـا مَليًّـا ، تَحْمِلُهَـا عَلَـى عَجَـل ،

كَأَنَّهَا عَثَرَت عَلَى كَنز ثَمين ، تَلْتَفتُ في جَميع الاتجَاهَات ثُمَّ تَجْري مُهَرْولَةً كَالمَجْنُونَة إِلَى مَكَانٍ قَصِيٍّ . . لِتَضَعَ البَيْضَةَ فِي مَكَانٍ أَمِينٍ بَينَ الصُخُور ...

مَاذَا لَوْ كَسَرَت أَهْمَامَه البَيْضَةَ وَ عَرَفَت مُحْتَوَاهَا؟ هَلْ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَاتُرَى؟

وَتَمُّر الأَيَّامُ . . تَرَتَادُ خلاَلَهَا أَهْمَامَة المَكَانَ . . . البَيْضَةُ تَفْقِسُ يَخْرُجُ مِنْهَا مَخْلُوقٌ صَغِيرٌ في صفَة ثُعْبَان .

يَاللغَرَابَة؟ لَمْ تَأْبَه بِه أَهْمَامَه ، وَاصَلَت تجوَالَهَا بَيْنَ الحُقُول بَحْثًا عَنْ نَفْسِهَا . . ثُمَّ مَاذَا لَو قَتَلَتْ أَهْمَامَه الثُعْبَانَ . . هَلْ تُصْبِحُ لقصَّتهَا نهَايَة؟

مَرَّت الأَيَّامُ وَالثُعبَانُ الصَغِيرُ يَكْبرُ وَيَكْبرُ . . إِلَى أَنْ صَارَ عِمْلاَقًا يُهَدِّدُ أَمْنَ السُّكَان في حَيَاتِهم وَمَوَاشِيهم وَمَرَاعِيهم . .

احْتَارَ السُّكَانُ فِي الأَمْر أَيامًا كَثِيرَةً ، وَهَاهِيَّ حيرَتُهُم الشَّدِيدَة تُجبرُهُم عَلَى اتخَاذ قَرَار حَاسِم . . . لاَبُّدَ مِن مُقَاوَمَة الثُّعْبَانَ . .

وبَعْدَ قتَال مَرير . . انْتَصَرَ القَرَوِيُّونَ عَلَى العِمْلاَق وَطَرَحُوهُ عَلَى الأَرْض صَرِيعًا ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى إِحْضَار أَكْوَام الحَطَب لحَرْقِه وَمَحْو آثَارِه فَكَوَّمُوا جسْمَهُ بالحَطَب وَأَشْعَلُوا النَّارَ وَسَطَ الأَهَازِيج وَالأَغَانِي . . وَبَدَأَ الدُّخَانُ يَتَعَالَى حَامِلاً رَائحَةَ الاحتِرَاق . . . وَفَجْأَةً غَطَّت سَمَاءَ الحَاضِرِينَ سَحَابَةٌ مِن النَّحْلِ القَادِمِ مِنْ كُلِّ مَكَان .

انْدَهَشَ الحَاضِرُونَ وعَادَت الحيرَةُ مِنْ جَديدٍ وَهُم يُشَاهِدُونَ أَسْرَابَ النَحْلِ تُقْبِلُ فَتَمْتَصُّ إفْرَازَاتِ جِسْمِ الثُّعْبَانِ المُحْتَرِقِ كَامْتِصَاصِهَا رَحِيقَ الأَزْهَارِ . . .

إِنَّهَا الكَارِثَةُ الكُبْرَى . . السُّمُّ في العَسَلِ . . هَلْ سَنَمُوتُ جَمِيعًا إِذَا ذُقْنَا عَسَلَ النَّحْلِ المَمْزُوجِ بِسُمِّ الثُّعْبَانِ؟

هَكَذَا تَسَاءَلَ الحَاضِرُونَ . . . ثُمَّ انْصَرَفُوا يُفَكِّرُونَ فِي مَخْرَجٍ لِلنَّجَاةِ مِن الخَطَرِ الَّذِي صَوَّرَتْهُ لَهُم أَفْكَارُهُم . .

قَالُوا :

-"لاَبُدَّ أَنْ يَتَطَوَّعَ أَحَدٌ للاخْتِبَارِ . . إِمَّا حَيَاةٌ أَوْ مَوْتٌ ، لَكِن مَن يَتَجَرَأُ عَلَى ذَلِكَ؟ مَنِ يُغَامِرُ بِنَفْسِهِ؟ !

بَعْدَ صَمْتٍ قَصِيرٍ كَأَنَّهُ دَهْرٌ ، نَطَقَ أَحَدُهُم :

-الحَلُّ عِنْدَ الشَّيْخِ "بُورَاك" نُطْعِمُهُ العَسَلَ لِنَرَى النَتِيجَةَ ؟

صَفَّقَ الجَمِيعُ مُبْتَهِجِينَ بِالفِكْرَةِ . . . قَائِلِينَ :

-الشَّيْخُ "بُورَاكَ" فِي أَرْذَلِ العُمْرِ . . . عَلَى حَافَّةِ القَبْرِ . . . إِذَا مَاتَ مَسْمُومًا فَقَدْ يَسْتَرِيحَ مِن تَعَبِ الدُّنْيَا وَقَدْ أَنْهَكَهُ الفَقْرُ بَعْدَ أَنْ أَعْجَزَهُ الدَّهْرُ . . وَبِذَلِكَ نَكُونُ قَدْ أَنْجَزْنَا التَجْرِبَةَ وَعَرَفْنَا الحَقِيقَةَ . . .

وَلَمَّا حَانَ مَوْسِمُ الشَهْدِ والعَسَلِ . . بَحَثُوا عَنِ الشَّيْخِ «بُورَاك» حَتَّى وَجَدُوهُ وَقَدْ لَجَبَ الجَنْبَانِ وَاحْدَوْدَبَ الظَّهْرُ . . وَانْطَفَأَ

نُورُ البَصَرِ، "الفَمُ رَاب وَالرَأسُ شَاب وَالظَهْرُ عَاب وَتَفَرَّقَ الأحْبَاب . . . " !!

قُدِّمَ العَسَلُ المَسْمُومُ إلَى الشَّيْخِ المسْكين . . وَوَقَفَ الجَمِيعُ في انْتظَار المَوْت المحْتُوم . . فَأقْبَلَت الحَيَاةُ! حَدَثَ مَا لَمْ يَخْطُر عَلَى بَال بَشَر، إنَّهَا المُعْجزَةُ حَقًّا !! .

لَقَدْ اسْتَعَادَ الشَّيْخُ الأعْمَى بَصَرَهُ مِنْ جَدِيدٍ بَعْدَ أنْ تَجَرَّعَ العَسَلَ !!

لَمْ يُصَدِّق الحَاضِرُونَ المَشْهدَ وَحَتَّى الشَّيْخُ بَدَأَ يَتَلَمَّس الحَاضرينَ بَيْنَ مُصَدِّق وَمُكَذِّب؟ ثُمَّ بَدَأَ يَسْتَعيدُ شَبَابَهُ، فَاسْوَدَ شَعْرُهُ وَاسْتَقَامَ ظَهْرُهُ وَتَزَيَّنَ فَمُهُ بِالأسْنَانِ والأضْرَاسِ وعَادَ رَبيعُ العُمْرِ إلَى جِسْمِهِ . . . !!

ذَهلَ الجَميع . . وانْبَهَرَ الشَّيْخُ لحَاله ثُمَّ قَالَ :

-إنَّ للّه جُنُودًا من عسَل . . هَذَا جَزَاءُ مَنْ يَتَوكَّلُ عَلَى اللهِ . .

نَعَمْ لَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَال : اتَق الله تَرَى العَجَائب . .

تَأسَّفَ القَرَويُّونَ لسُوءِ نِيَّتِهِم . . . . وَطَلَبُوا مِنهُ الصَفْحَ وَالسَمَاحَ

لَكِنَّ الشَّيْخَ عَاتَبَهُم قَائلاً :

-أيُّهَا الأوْغَاد . . . أرَدْتُم قَتْلي !

طَأطَأَ الحَاضِرُونَ رُؤُوسَهُم وَوَاصَلَ الشَّيْخُ الشاب "بُورَاك" كَلاَمَهُ :

إنِّي أُطَالِبُ بِالدِّيَةِ المَشْرُوعَةِ . .

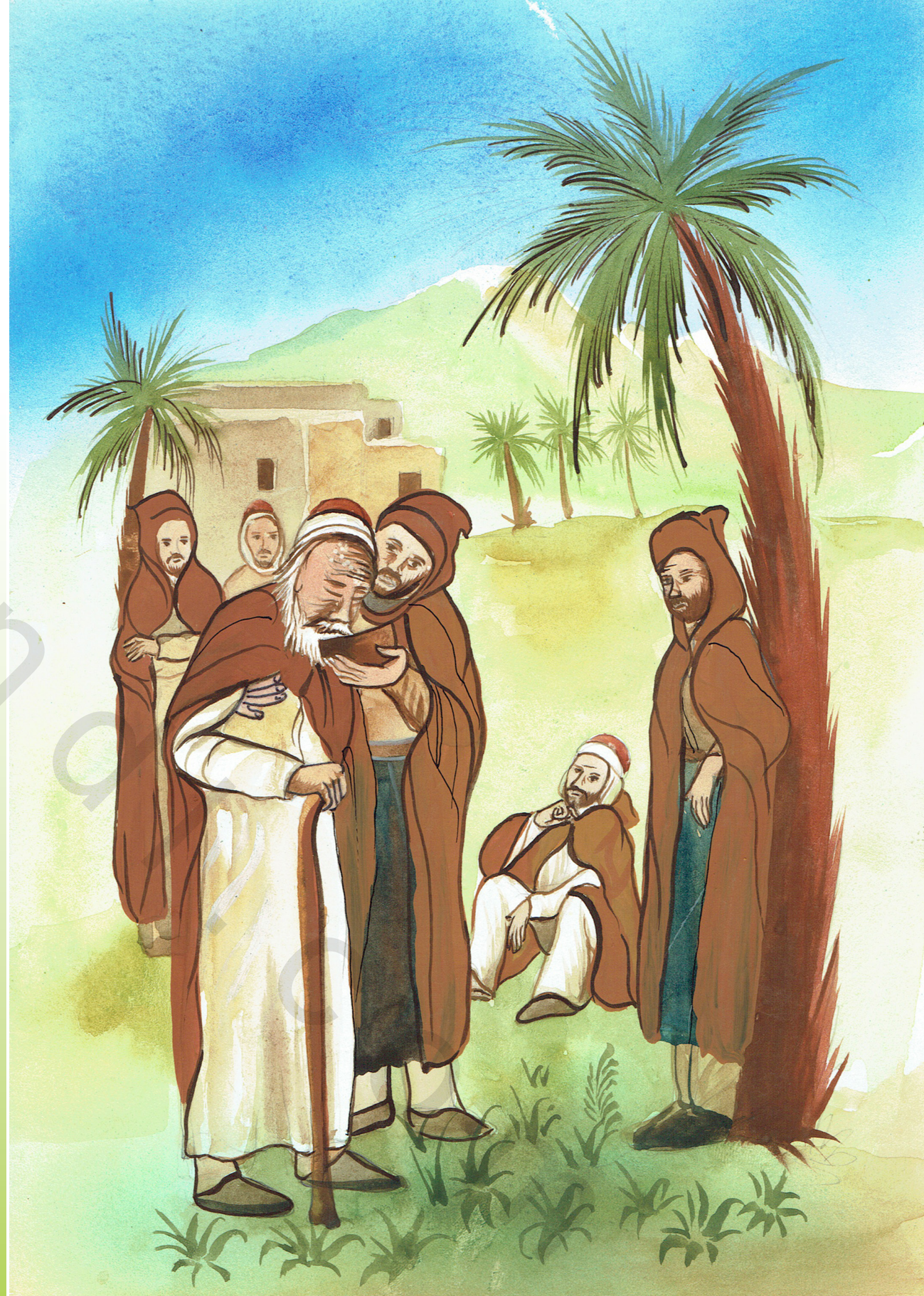

قَالَ أَحَدُهُم في اسْتِحْيَاءٍ: أُطْلُبْ مَا شِئْتَ . .

قَالَ الشَّيْخُ "بُورَاكَ:

دِيَّتِي . . «أَهْمَامَه» . . الزَّوَاجُ بِأَهْمَامَه زِيْنَة البَنَات . .

فَوَافَقَ وَالِدُهَا الَّذِي كَانَ حَاضِرًا مَعَ القَوم . . تَزَوَّجَ الشَّيْخُ دِيَّتَهُ «العَرُوسِ أَهْمَامَه» وَعَاشَا رَدْحًا من الزَّمَنِ فِي غِبْطَةٍ وَسُرُورٍ، أَنْجَبَا أَطْفَالاً أُطْلِقَ عَلَيْهِم اسْمِ أَوْلاَد عَبْدِي . .

ومَعَ الأَيَّام بَدَأَ جَمَالُ «أَهْمَامَه» يَذْبُلُ كُلَّمَا تَقَدَّمَ بِهَا العُمْرُ رَغْمَ مُحَاوَلَتِهَا الحِفَاظَ عَلَيه بِأَنْوَاعِ العَقَاقِيرِ وَلَكِنَّ الزَّمَنَ لاَ يَرْحَم . .

وَهَلْ يُصْلِحُ العَطَّارُ مَا أَفْسَدَهُ الدَّهْرُ؟ !

وَكُلَّمَا مَرَّت السُنُونُ ازْدَادَ الشَّيْخُ الشَاب فُتُوَّةً وَعُنْفُوانًا حَتَّى صَارَ كَابْنِ العِشْرِينَ صِحَّةً وَجَمَالاً ... فَاخْتَارَ مَرَّةً ثَانِيةً فَتَاةً شَابَّةً اسْمُهَا «توبَة» وَتَزَوَّجَهَا بَعْدَمَا فَارَقَ «أَهْمَامَه»، تَارِكًا إِيَّاهَا مَعَ أَبْنَائِهَا أَوْلاد عَبْدِي فِي نَاحِيَة من ضِفَاف الوَادِي وَسَكَنَ مَعَ زَوْجَتِه الثَانِيَة «توبَة» عَلَى ضِفَّةِ النَّهَرِ الأُخْرَى «المُقَابِلَة» فَأَنْجَبَ مَعَهَا أَطْفَالاً أُطْلِقَ عَلَيْهِم اسْمِ «التَوَّابَة» . .

وَبَدَأَ النهر الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ المَرأَتَين وَذُرِيَّة الشَّيْخ يَشْهَدُ فِي صَمْتٍ مِيْلادَ الفِتْنَة . . الصِرَاعُ المُرُّ بَيْنَ الإِخْوَةِ الفُرقَاء . . الإِخْوَةِ الأَعْدَاء . . أَوْلاد عَبْدِي وَالتَوَّابَة أَبْنَاء الأَب الوَاحِد .

العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ يَنْمُوانِ عَلَى ضِفَّتَي النَّهَرِ . . فَيَرْضَعُهُمَا

الأَطْفَـالُ مَـعَ حَلِيـبِ المَرْأَتَـين . . وَيَشْـرَبُهُمَا الكِبَـار جُرُعَـات حقْـد مـن مَجْـرَى الـوَادي الحَزِيـن . . وَيَتَوَارَثُهُمَـا أَحْفَـادُ القَبِيلَتَـين جِيْـلاً بَعْـدَ جِيـلٍ . . وَيَلْبَـسُ الأَوْرَاسُ رِدَاءَ الخَطَـرِ . . ثُـمَّ يُعْلِـنُ ثَـوْرَةَ الغَضَـب بَـيْنَ أَبْنَـاء الشَّـيْخ الشَّـاب ، بِلُغَـةٍ قَاسِـيَّةٍ أَدَوَاتُهَـا كُلُّهَـا غَيْـضٌ وَفَيْـضٌ ، كَـرٌّ وَ فَـرٌّ اعْتِـدَاءٌ فَانْتِقَـامٌ . . .

سَـكَنَ الهَلَـعُ قُلُـوبَ الأَهَالِـي فِي القُـرَى وَالأَريـاف ، وانْعَـدَمَ الأَمْـنُ فِي رُبُـوعِ الأَوْرَاس وَحَلَّـت مَحَلَّـهُ أَعـرَاسُ الـدَّم ، مَـعَ زَغَارِيـدِ البَـارُودِ فِي السُّفُوحِ وَالوِهَـاد ، وَسَـائِرِ مَرَابِـعِ الشَـاوِيَّة .

لَكِـن دَوَامُ الحَـالِ مِـنَ المُحَـال وَالأُخُـوَّةُ لاَ تُبَـاعُ بِالمَـال كَمَـا يُقَـال ، وَلأَنَّ الزَّمَـن طَبِيـبٌ فَقَـدْ ضَمَّـدَ الجِرَاحَ بِهُـدُوءٍ حَتَّـى التَأَمَـت ، بَعـدَ أَنْ جَـاءَت أَيَّـامُ العُسْـرَةِ تِبَاعًـا عِنْدَمَـا أَقبَـلَ قَـومٌ مِـنْ وَرَاءِ البَحـرِ احتَلُّـوا الوَطَـنَ فَشَـرَّدُوا سُكَانَهُ وَنَهَبُـوا خَيْرَاتِـه . فَالتَحَمَـت القَبِيلَتَـان فِي صَـفٍّ وَاحِـد وَحَارَبُـوا الأَعْـدَاء ، حَتَّـى تَحَقَّـقَ النَصْـرُ عَلَـى المُحْتَلِـين ، فَجَـرَى مَـاءُ الـوَادي غَسُـولاً طَهُـورًا لِلْقُلُـوبِ السَـوْدَاء فَابْيَضَّـت ، وَأَضَـاءَ العَقْـلُ بِحِكْمَتِـه بَصِيـرَةَ المُتَخَاصِمِـين . . فَتَعَانَـقَ الجَمِيـعُ وَامْتَزَجَـت دُمُوعُهُـم فَرَحًـا . . بِالتَّسَامُـحِ وَالمَحَبَّـةِ بَيْنَهُـم وَعِنْدَئِـذٍ صَـارَتِ التَوْبَـةُ وَالعِبَـادَةُ عُنْوَانًـا لِقَبِيلَـةِ أَوْلاَدِ عَبْـدي وَالتَّوَابَـة .

وَلَبِـسَ الجَمِيـعُ أَثْـوَابَ المَحَبَّـةِ وَالهَنَـاء بَعْـدَ الخِـلاَف والجَفَـاء . . . وَغَنَّـى الأَطْفَـال . . . لِيَمْتَـدَّ رَبِيـعُ الأَوْرَاسِ طُـولَ الدَّهْـرِ . . .